الفاصلة القرآنية بين رعاية اللفظ ومراعاة المعنى والنحو

أستاذ دكتور

مجـــدى مـحـــمـــد حسيــن

أستاذ النحو وعلم اللغة

كلية الآداب – جامعة دمنهور

الفاصلة القرآنية بين رعاية اللفظ ومراعاة المعنى والنحو

أ.د. مجـــدى مـحـمـد حسيـن*

تقديم

قال الجاحظ: "سمى الله كتابه اسمًا مخالفًا لما سمى العرب كلامهم على الجملة والتفصيل، سمى جملته قرآنًا، كما سموا ديوانًا، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضها آية كالبيت، وآخرها فاصلة كقافية". [السيوطى، الإتقان، ١/٥٠].

وعلى هذا كان القرآن موافقًا فى جملته للغة العرب وفصيح كلامهم، وإن اختلف بعد ذلك فى نسق تراكيبه ومقصود مفرداته، وكما كان أفصح الكلام العربى وأرفعه الممثل فى الشعر يتكون من عدد من الأبيات تتخللها وقفات على كلمات ذات إيقاع موسيقى واحد محسوب، ومتخير، كذلك كان القرآن الذى تتكون سوره من عدد من الآيات، يعقب كل آية وقفة يستريح عندها القارئ، يتدبر ما قرأ ويفهم عنه سامعه، فضلاً على ما فى هذا الوقف من إبراز موسيقية القرآن التى لا تتضح إلا به، فيزيد ذلك من روعة التلاوة بما يخلع عليها من إيقاع محبب ونغم أخّاذ.

وللقرآن موسيقاه الخاصة التى لا يفوت إدراكها أحد من قرائه، وهى أوضح من أن تجحد، وليس من الخطأ فى الدين، ولا من العيب فى حق القرآن أن نقول: "إن

* أستاذ النحو وعلم اللغة كلية الآداب – جامعة دمنهور

القرآن يهتم بجانب الموسيقى، ويراعى الإيقاع، وحسن الجرس، ولا يمس قداسته"، وعظمته أن نقول: "إنه راعى التناسب الصوتى بين المقاطع، والتقابل الموسيقى".

[الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى، عيد شبايك، ص ٨٠].

والفاصلة فى تعريف القدماء هى كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وسجعة النثر، قال الرمانى: "الفواصل حروف متشاكلة فى المقاطع توجب حسن إفهام المعانى"، قال أبو بكر الباقلانى: "الفواصل حروف متشاكلة فى المقاطع، يقع بها إفهام المعانى"، وقال أبو عمرو الدانى: "الفاصلة (كلمة آخر الجملة)"، وقال ابن منظور: "أواخر الآيات فى كتاب الله فواصل، بمنزلة قوافى الشعر، واحدتها فاصلة. [نقلاً من الفاصلة فى القرآن، محمد الحسناوى، ص ٢٦].

والقرآن يؤكد فى غير آية أنه بلسان عربى مبين، هذا اللسان العربى يميّزه الشعر الذى يمثل قمة فصاحتهم، والشعر هو الكلام الموزون المقفى، فكان طبيعيًا أن يؤلف القرآن قريبًا من هذا النسق فى مجمله، "ليس بمستساغ فى العقل ولا فى المنطق أن يترك القرآن مظهرًا من مظاهر الفصاحة لأن طائفة من العرب كانوا يستخدمون فى كلامهم هذا المظهر، ولو كانت هذه طريقة القرآن لترك كذلك التشبيهات والاستعارات والكنايات وأنواع البديع وغيرها من ضروب البلاغة لأن الناس قد استخدموها فى كلامهم من قبل. [عبد الحكيم بلبع، النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه، ص ٩٥] ؛ قال سيبويه: "ولكنّ العباد إنما كلموا بكلامهم وجاء القرآن على لغتهم وما يعنون. [الكتاب، ١٤٨/٣] ، وقال ابن فارس: "وقد جاء القرآن بجميع هذه السنن لتكون حجة الله عليهم آكد، ولئلا يقولوا: إنما عجزنا عن الإتيان بمثله؛ لأنه بغير لغتنا وبغير السنن التى نستنها فأنزله جل ثناؤه بالحروف التى يعرفونها وبالسنن التى

يسلكونها فى أشعارهم ومخاطباتهم ليكون عجزهم عن الإتيان بمثله أظهر وأشهر". [الصاحبى، ٣٢٣].

فلا عجب أن يراعى القرآن ذلك الجانب المؤثر لأنه نزل بلغة العرب وجرى على ما يستحب العرب من موافقة المقاطع ومراعاة التناسب؛ ولهذا أتت لغة القرآن محافظة على ذلك التناسب الصوتى – فى كلماته وجمله ومقاطعه وفواصله ببعض الترخصات اللغوية – كالحذف أو الزيادة أو التغيير فى بنية الكلمة، وببعض صور العدول عن الأصل، كتقديم كلمة، أو تأخير أخرى، أو إيثار صيغة على أخرى مما يثبت أن العطاء الموسيقى أقوى من العطاء اللغوى إن وضُع فى مقابله. وكأن للحفاظ على التناسب الصوتى فى القرآن قيمة أكبر من الحفاظ على بعض العلاقات الجزئية.

[الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى، ص ١٨٩].

ونبحث هنا عن أثر الفاصلة فى جانبين: المعنى والنحو أو الدلالة والمقررات اللغوية، فهل كانت لرعاية الفاصلة – لتحقيق الاتساق على رؤوس الآي وبلوغ قمة الانسجام الموسيقى – دور وأثر فى تنحية المعنى والقواعد قليلاً وتقديم اللفظ؟ أم كانت هذه الفاصلة متسقة فى كل مواضعها جنبًا إلى جنب مع هذين المستويين؟، وبمعنى آخر هل كانت الفاصلة سببًا فى وقوع بعض المخالفات اللغوية أو سببًا فى تراجع المعنى فيما يمكن أن يسمى بالضرورة القرآنية؟ يقول تمام حسان: "معنى هذا الذى تقدم أن الفاصلة القرآنية لا تدل بالضرورة على تمام المعنى، ومن ثم تصبح وظيفتها فى القرآن غير نحوية ولا دلالية، فإذا لم يكن للفاصلة غرض نحوى ولا دلالى، فماذا يكون الغرض منها إذًا ؟ أغلب الظن أن الغرض منها جمالى صرف وإن

توافقت أحيانًا مع تمام المعنى. فالذى يبدو للوهلة الأولى عند النظر إلى الفاصلة أنها قيمة صوتية جمالية ترتبط أشد الارتباط بموسيقى النص القرآنى، كما ارتبط الإيقاع بذلك من قبلها". [البيان فى روائع القرآن، ص ٢٠١].

هذا المصطلح – أعنى الضرورة يتردد وإن بنسب قليلة – فى بعض كتب اللغة تشبيهًا لها بالضرورة الشعرية، إن الضرورة القرآنية ليس لها صلة بوزن الآية لأن كلمات القرآن لا تتقيد بعروض الشعر ولكن الضرورة تتعلق بالموسيقى وتحقيق الانسجام فهى تتصل برعاية الألفاظ وحروف الروى، وبمعنى آخر فإن الضرورة الشعرية تتصل بالوزن والقافية أما الضرورة القرآنية فتتصل بالقافية فقط أو بمعنى أدق بالفاصلة "إن الضرورة الشعرية فى أقرب تعريفاتها، هى الخروج على القاعدة النحوية والصرفية فى الشعر خاصة لإقامة الوزن، وتسوية القافية". [حماسة عبد اللطيف، دراسة فى الضرورة الشعرية، ص ١٠].

وينسب إلى ابن الصائغ (ت: ٧٧٦) كتاب (إحكام الراي فى أحكام الآي) تتبع فيه هذا الخروج على رؤوس الآي والذى تجاوز الأربعين موضعًا وقوله "اعلم أن المناسبة أمر مطلوب فى اللغة العربية يُرتكب لها أمور من مخالفة الأصول قد تتبعت الأحكام التى وقعت فى آخر الآي مراعاة للمناسبة، فعثرت منها على نيف وأربعين حكمًا". [الاتقان، ٢٩٦/٣].

وعودة إلى فكرة الضرورة فنقرر أن ما جمعه العروضيون فى أقسام هذا العلم والتى حصروها فى ثلاثة جوانب: الحذف والزيادة والتغيير وقع مثلها فى القرآن، من هنا خصصنا فصلاً عن الحذف والزيادة وفصلاً عن البنية وثالثًا خاصًا بالتراكيب وأخيرًا فصلاً عن مفردات ألفاظ الفاصلة وطبيعتها الخاصة، والتى نعتقد أنها تجمع

معظم أنواع التغيير التى أشار إليها ابن الصائغ بخلاف ما أمكن استخراجه من هذه الضرورات.

والتزمنا فى كتابة الآيات التى نعمل على بيان إيقاعها الموسيقى على السطر القرآنى، هذه الفكرة التى اقترحها د. محمد الحسناوى وحاول تطبيقها لتيسير تذوق النص القرآنى وجمال فواصله.،،،

الحـذف والزيـادة

أولًا – الحـذف:

النص القرآنى فى مجمله سلسلة من المحذوفات، منها محذوفات قياسية صرفية تخضع لقواعد اللغة، ومنها محذوفات تقديرية تتعلق بملء الفراغات وفهم المعنى، فمثلاً (البسملة) فى أول كل سورة هى فى الحقيقة جملة ناقصة أو كما تسمى شبه جملة ولا يستقيم معناها إلا بعد تقدير محذوف نحو (ابتدائى) (بسم الله) أو (أبدأ) بسم الله، وكذلك (الحمد لله رب العالمين) يمكن تقدير محذوف كأن يكون (قولوا) الحمد لله أو (ابدأوا)... إلخ.

والحذف الذى يقع على رؤوس الآي لأجل الفواصل يمثل فى جزء منه ما يمكن أن نسميه (ضرورة قرآنية) تختلف عن ضرورة الشعر – كما أشرنا فى المقدمة – إلا أن هذا الاختلاف لا ينفى عنها صفة الضرورة، وذلك لتحقيق الانسجام الصوتى والموسيقى الذى يسعى إليه القرآن سعيًا، وقد يُضحى فى سبيل ذلك بالقواعد

والمقررات اللغوية، بل يكون أحيانًا على حساب المعنى كما سنوضح فى هذه الصفحات.

حذف الحرف:

ونعنى به الحرف الذى يمثل جزءً أصيلًا من بنية الكلمة فى الميزان الصرفى، من هذا الحذف ما يكون له مسوغ صرفى ومنه ما يأتى دون مسوغ سوى تحقيق الإيقاع الموسيقى، فمن الأول – على سبيل المثال – (هادٍ)، (واقٍ) (والٍ) فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾

﴿ **وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ** ﴾ [الرعد ٣٣، ٣٤]

أصلها (هادي– واقي) ، وعلة حذف الياء فى هذه الأسماء وجود التنوين، لأن تنوين هذه الأسماء نتج عنه حذف ياءاتها وصلاً وذلك فى حالتى الرفع والجر، نحو: هذا قاض يا فتى، ومررت بقاضٍ يا فتى، فاستمروا على حذف الياء وقفًا، قال سيبويه: "هذا باب ما يحذف من أواخر الأسماء فى الوقف وهى الياءات وذلك قولك: هذا قاضْ، وهذا غازْ، وهذا عمْ، تريد العَمِى. أذهبوها فى الوقف كما ذهبت فى الوصل، ولم يريدوا أن يظهر فى الوقف كما يظهر ما يثبت فى الوصل فهذا الكلام الجيد الأكثر" [الكتاب، ٤/ ١٨٣].

وهذا التعليل لهذا الحذف غير مقنع وأقرب إلى الافتراض، وإثبات الياء فى هذه المواضع – فى رأيى– أدق دلاليًا (فهادي) أفضل من (هاد) و (واقي) أدق من (واق) والتى تبدو كأنها من لغة أخرى، ويبدو أن الداعى لهذا الحذف هو حذفها من المصاحف وتقيدهم بمرسوم الخط، وقد أثبتهما ابن كثير وقفًا.

ومن حذف الياء فى الأفعال (يسر) من قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**﴾ [الفجر٤] وهذا النوع من الحذف ليس له مسوغ إعرابى، ونعتقد أن وقوعه كان من أجل الفاصلة واتساق حروف الفواصل الأشبه بحروف الروى:

﴿ **وَالْفَجْرِ**﴾
﴿ **وَلَيَالٍ عَشْرٍ**﴾
﴿ **وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ**﴾
﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**﴾
﴿ **هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ**﴾

[الفجر ١ – ٥].

وقد أثبت هذه الياء وقفًا ووصلاً: نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب. يقول سيبويه فى (باب ما يُحذف من أواخر الأسماء فى الوقف وهى الياءات) "وجميع مالا يُحذف فى الكلام وما يختار فيه ألا يحذف، يحذف فى الفواصل والقوافى، فالفواصل قول الله عز وجل: ﴿**والليل إذا يسر**﴾ [الفجر:٤] ، ﴿**ماكُنَّا نَبْغِ**﴾ [الكهف:٦٤]، ﴿**يَوْمَ التَّنَادِ**﴾[غافر:٣٢] ، ﴿**الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**﴾ [الرعد:٩]. والأسماء أجدر أن تحذف إذا كان الحذف فيها فى غير الفواصل والقوافى.[الكتاب:٤/١٨٤].

والمتأمل لأول السورة يتبين له أن السبب الرئيس لحذف هذه الياء هو اتساق الفواصل كما نص على ذلك معظم المفسرين واللغويين، يقول ابن جرير الطبرى: "وحذف الياء فى ذلك أعجب إلينا، ليوفق بين رؤوس الآي إذ كانت بالراء، والعرب

ربما أسقطت الياء فى موضع الرفع فى مثل هذا، اكتفاءً بكسرة ما قبلها، من ذلك قول الشاعر:

ليسَ تَخْفَى يسارتى قدر يوْمٍ ولقدْ تُخفِ شيمتى إعسارى "

وقول الحارث بن خالد المخزومى:

ووجدى بالأحبة يوم باتوا كوجه الصاد بالماء النقاح

أراد الصادى.

وقول الأعشى:

ولا يدع الحمد أو يشتريه بوشك الفتور ولا بالتوان

وكنت امرأ زمنًا بالعراق عفيف المناخ طويل التغن

أراد التوانى والتغنى.

[انظر الزجاج، معانى القرآن، ٣٢١/٥، والفراء، معانى القرآن، ٢٩٧/٢].

ومع جلاء أثر الفاصلة فى وقوع هذا الحذف نرى عائشة عبدالرحمن لا تلتفت لهذا الأثر خاصة فى هذه الآية، بحجة أن هذا الحذف وقع مثله فى حشو الآي ولم يكن رأس آية تقول "أفلا يكون القائلون بالحذف لرعاية الفواصل قد تعجلوا بمثل هذا القول فى آيات الفجر ونظائرها، محتكمين إلى قواعد اللغويين والنحاة فى المعتل الآخر والمنقوص، حين ينبغى أن نعرض قواعدهم على ما يهدى إليه الاستقراء لكل مواضع الحذف والإثبات فى الكتاب المحكم. [الإعجاز البيانى للقرآن، ص ٢٥١].

ومن ذلك أيضًا حذف الياء من الكلمات المبدوءة بأل التعريف نحو: ﴿**الْمُتَعَالِ**﴾ [الرعد:٩]، ﴿**التَّنَادِ**﴾ [غافر:٣٢] وأصلهما: (المتعالى)، (التنادى) وذلك لتنسجم مع ما

قبلها وما بعدها من فواصل، ولا شك أن حذف الياء كان لرعاية الفاصلة وجاء مخالفًا للمقررات اللغوية والمعنى. فتحذف هذه الياء من هذه الأسماء المنقوصة إذا كانت نكرة لتنوينها لئلا يلتقى ساكنان – كما يقولون– ، أما حال التعريف كما هو فى هذه الآية فالأصل إثبات الياء لأن التنوين لا يجتمع مع التعريف فلم يعد للحذف مبرر، لذا قال معظم النحاة: إثبات الياء هو الأصل وهو الكثير المستعمل فى لسان العرب وهو القياس، أما مَن حذفها فمتابعة للرسم وتشبيهًا لها بالفواصل والقافية وطلبًا للتخفيف، ومع ذلك يبقى إثبات هذه الياء هو الأحسن دلاليًا لأن النطق بالكلمة مبتورة على هذا النحو (المتعال) يذهب بمعناها، أما (المتعالى) فأدق دلاليًا وأكثر تعبيرًا عن فحوى التشبيه والمراد بالوصف وأكثر إيحاءً فى نقل الصورة التى تشى بها الكلمة من علوه سبحانه، خاصة مع امتداد الصوت بالياء والذى يذهب معه العقل كل مذهب فى محاولة إدراك كنه هذا العلو، وقد أثبتها ابن كثير ويعقوب وقفًا ووصلاً.

حذف الكلمة:

وهذه الكلمة قد تكون ضميرًا وقد تكون اسمًا ظاهرًا، فمن الأول حذف الياء فى مواضع كثيرة بالذكر الحكيم، نحو: ﴿**فَارْهَبُونِ– فَاتَّقُونِ**﴾ [البقرة:٤٠، ٤١] اتساقًا مع ما قبلها وما بعدها من فواصل، ولا شك أن إثبات الياء أوقع من جهة مضمون الخطاب خصوصًا أن الضمير يعود عليه سبحانه (فارهبونى – فاتقونى) مما يستدعى استحضار الخشية والرهبة، إلا أن الفاصلة كان لها رأي آخر فوقع الحذف.

ومن ذلك ﴿**فَأَرْسِلُونِ**﴾، ﴿**وَلَا تَقْرَبُونِ**﴾ [يوسف: ٤٥، ٦٠] فالجملة الأولى لو اقتطعت من النص تبدو غريبة بخلاف (فأرسلونى) إذ هى جملة تامة ومفيدة وكذلك الجملة الثانية.

وكذلك كلمة (وعيد) فى أكثر من سورة بعد إضافتها إلى ياء المتكلم وحذفها اكتفاءً بالكسرة لتحقيق التناسق والانسجام الموسيقى، من ذلك:

﴿ **ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ**﴾ [إبراهيم:١٤].

﴿ **كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ**﴾ [ق:١٤].

﴿**وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ**﴾ [ق:٤٥].

ونرى أن إثبات الياء آكد فى تحصيل المعنى وهو تخويف العباد وإثارة الرهبة فى النفوس بإحضار صوت المتكلم (ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيدى) وقد أثبتها يعقوب من العشرة وقفًا ووصلاً.

وما قيل هنا يقال على حذف الياء والاجتزاء بالكسرة من قوله تعالى: ﴿**عِقَاب – نَكِير**﴾:

﴿ **ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**﴾ [الرعد:٣٢].

﴿ **إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ**﴾ [ص:١٤].

﴿ **وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾ [غافر:٥].

﴿ **فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**﴾ [الحج:٤٤].

﴿ **وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**﴾ [سبأ:٤٥].

﴿ **ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**﴾ [فاطر:٢٦].

ومذهب يعقوب من العشرة إثبات الياء فى هذه المواضع على الرغم من أنها محذوفة من المصاحف العثمانية.

ومن حذف الضمير لإقامة الفاصلة والاجتزاء بالكسرة قوله تعالى: ﴿**بل لما يذوقوا عذاب**﴾ [ص:٨] أي عذابى وعلى هذا النحو قرأها يعقوب من العشرة، وإنما كان حذف الضمير لتتسق مع الفواصل قبلها وبعدها: (اختلاق- الوهاب- الأسباب- الأحزاب)، وإثبات الياء هنا قد يكون أدق دلاليًا وأدعى للمعنى إذ يعود الضمير عليه سبحانه ﴿**عذابى**﴾ بما يثير فى النفوس من الخوف والفزع والرعب.

وكذلك كان حذف الياء التى تمثل ضميرًا من قوله تعالى: ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ [الكافرون:٦] اتساقًا مع أواخر كلمات هذه السورة:

﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُوْنَ**﴾

﴿**لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُوْنَ**﴾

... إلخ.

ولا شك أن هذا الحذف جاء على حساب المعنى ولو بشكل جزئى، فلنعد إلى قراءة الجملة بعد إثبات الياء لنلمس الظلال الدلالية:

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِيني)، فدينه الذى يعتز ويفخر به ليس أي دين بل هو الدين الذى أرشده إليه ربه، وكذلك إثبات الياء يحقق المقابلة بين الضمير (كُم) فى [دينكم]

والياء فى [دينى]، مع امتداد الصوت بالياء، ولكن كان الاعتبار والاعتداد للفاصلة التى لونت هذه الكلمات على هذا النحو.

ومن حذف الضمير كذلك قوله تعالى: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ**﴾ [الضحى:٣]. يقول الرازى: "وفى حذف الكاف وجوه: أحدها: حذفت الكاف اكتفاءً بالكاف الأولى فى ودعك، ولأن رؤوس الآيات بالياء، فأوجب اتفاق الفواصل حذف الكاف، وثانيها: فائدة الإطلاق أنه ما قلاك ولا (قلا) أحدًا من أصحابك ولا أحدًا ممن أحبك إلى قيام القيامة، تقريرًا لقوله: (المرء مع من أحب)"، تقول عائشة عبد الرحمن: "ونرى والله أعلم أن حذف الكاف من (وما قلى) مع دلالة السياق عليها، تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة واللطف، هى تحاشى خطابه تعالى رسوله المصطفى، فى موقف الإيناس، بصريح القول: وما قلاك لما فى القلى من حسن الطرد والإبعاد وشدة البغض. أما التوديع فلا شئ فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوى فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع إلا بين الأحباب، كما لا يكون توديع إلا مع رجاء العودة وأمل اللقاء". [الإعجاز البيانى، ص ٢٥٠].

وهذا وجه جيد، ولكن تبقى رعاية الفاصلة بمثابة (الدلالة المركزية) لحذف الكاف ولو كانت إقامة الفاصلة تستدعى إثبات هذه الكاف لأوتى بها دون الالتفات إلى هذه الاعتبارات والدلالات.

**

ثانيًا – الزيـــادة:

زيادة الحرف:

زيدت الألف فى قوله تعالى: ﴿**وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**﴾، و﴿**وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا**﴾، و﴿ **فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا**﴾ [الأحزاب:١٠، ٦٦، ٦٧]، وفى قوله تعالى: ﴿**وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا**﴾ [الإنسان:١٥] حفاظًا على الإيقاع الموسيقى، وقد اختلفوا فى قراءة هذه الكلمات بحسب عناية كل قارئ بهذا الإيقاع اختلافًا يقترب من الاضطراب: فأثبتها بعضهم وقفًا ووصلاً وحذفها البعض فى الحالين وأثبتها فريق ثالث وقفًا وحذفها وصلاً رعاية للمقررات اللغوية، وزيادة الألف فى هذه المواضع تعد غريبة فى اللغة لدخولها على اسم معرفة أو غير مصروف، ولا يقع ذلك إلا فى الضرورة الشعرية وتسمى هذه (بألف الإطلاق) كقول جرير:

أقلى اللوم عاذل والعتابا ٠٠٠ وقولى إن أصبت لقد أصابا

وقول الآخر: "يا دار عمرة من محلتها الجرعا"، قال أبو حيان: "وللأخفش إذ يجيز الضرورة للشاعر فى الكلام والسجع دليل ذلك قوله تعالى: ﴿**وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**﴾، و﴿**فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا**﴾ زاد الألف لتتفق الفواصل كزيادة الألف فى الشعر للإطلاق. [ارتشاف الضرب، ٢٦٨/٣].

وقد مثّل شرّاح الألفية للتناسب ببعض الآيات ونسبوها لبعض القراء، وكان ابن جنى يخرج كثيرًا من القراءات القرآنية على أبيات ضرائر الشعر دون أن ينفى عن هذه الأبيات صفة الضرورة، بل أحياناً يلمح برفض القراءة مبقيًا على الضرورة، فيقول

مثلاً: "والشعر أولى بجوازه من القرآن" أو : "وهذا لعمرى مما تختص به ضرورة الشعر لا تخير" أو: "وهذا من مواضع الشعر". [نقلاً من لغة الشعر، دراسة فى الضرورة الشعرية، حماسة عبد اللطيف، ص ١٣٦].

ويرى ابن عاشور أن الألف زيدت فى هذه المواضع لرعاية الفاصلة وهذا هو الصحيح.

يقول تمام حسان : "وهذا النص المروى ربما تحدى أصول النحاة بالعدول أو تحدى قواعدهم بالترخص، وقد يكون هذا العدول عن الأصل أو ذاك الترخص فى القاعدة لرعاية الفاصلة، فمن المقرر فى القواعد أن الألف تنوب عن التنوين الذى بعد الفتحة عند الوقف، كما سبق فى قوله تعالى: ﴿**فَلاَ يُؤْمِنُونَ إلاَّ قَليلاً**﴾ [النساء:٤٦، ١٥٥]، ولأن التنوين الذى نابت عنه الألف لا يجتمع مع أداة التعريف (أل) حيث خلت النصوص العربية من الجمع بينهما حتى فى قوافى الشعر، لأن الألف التى تجامع (أل) فى قوافى الشعر ألف إطلاق وليست ألف إبدال أو تعويضى. ومع ذلك تأتى ألف الإبدال فى القرآن فى كلمات اقترنت بأداة التعريف وكانت الألف فى هذه الحالة لرعاية الفاصلة". [البيان فى روائع القرآن، ص ٢٠].

زيادة الكلمــة:

وهى ما تعرف عند البلاغيين بالإيغال، سُميت بذلك لأن المتكلم قد تجاوز المعنى الذى هو آخذ فيه وبلغ إلى زيادة على الحدِّ.

قد يكون منه قوله تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾[النساء:٨٢].

فالآية تنفى عن القرآن الاختلاف كثيرًا كان أم قليلاً، وهذا النفى يفيده قوله ﴿**اختلافًا**﴾ أما تقييده ﴿**كثيرًا**﴾ فلا يمنع بقانون المخالفة أن فى القرآن اختلافاً يسيرًا، فمن هنا يمكن الحكم على هذه الكلمة – ضمن تأويلات أخرى– بأنها زائدة جاءت لوظيفة أساسية وهى انسجام رؤوس الآي على نسق واحد مع ما قبلها وما بعدها:

شهيدًا – حفيظًا– وكيلاً – قليلاً – تنكيلاً.

ومن الأمثلة المشهورة التى يكثر ذكرها على هذا النوع من الزيادة قوله تعالى: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [المائدة ٥٠]، فقالوا إن الجملة انتهت عند قوله ﴿**حُكْمًا**﴾ وإن قوله ﴿**لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ زائدة للفاصلة خصوصًا وأن حكم الله أحسن وأفضل للعالمين الموقن منهم وغير الموقن.

ولنتأمل هذه الطائفة من الآيات:

١ – ﴿**لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الأعراف:١٢٤].

٢ – ﴿ **لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الشعراء:٤٩].

٣ – ﴿ **فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ**﴾ [طه:٧١].

فختمت بأجمعين فى الموضعين الأول والثانى، وخلت منها فى الموضع الثالث لعدم حاجة فواصل هذه السورة لهذه الكلمة.

ثم تأمل بعد ذلك هاتين الآيتين: ﴿**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [الشعراء:٩٠] وعلى النسق نفسه تقريبًا جاء قوله: ﴿**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ**﴾ [ق: ٣١] بزيادة ﴿**غَيْرَ بَعِيدٍ**﴾ومطالعة رؤوس آي السورتين يفسر لنا سبب هذه الزيادة فى الموضع الثانى دون الأول، خصوصًا وأن قوله تعالى: ﴿ **وَأُزْلِفَتِ**﴾ أفاد ما أفاده قوله ﴿**غَيْرَ بَعِيدٍ**﴾ التى ذُكِّرت وحقها التأنيث لرعاية الفاصلة.

ومن ذلك ما يسمى عند النحاة والبلاغيين (بعطف الخاص على العام)، نحو:

١ – ﴿ **وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا**﴾ [مريم: ٥١].

٢ – ﴿ **فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ**﴾ [الرحمن: ٦٨].

٣ – ﴿ **وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا** ﴾ [الإنسان: ١٢].

ففى الآية الأولى عطف (نبيًا) على (رسولاً)، وقالوا إن النبى هو الذى يوحى إليه لينصح قومه ويرشدهم دون أن يأتى برسالة من عند الله مثل يونس، لوط، زكريا، أما الرسول فهو الذى ينطبق عليه هذا الوصف إضافة إلى حمله رسالة سماوية كموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، فكل رسول نبى وليس العكس، يقول ابن الأثير: "وكل رسول نبى وإنما هذا هو إيراد لفظتين فى آخر إحدى الفقرتين بمعنى واحد وهذا لا بأس به، لمكان طلب السجع، ثم يقول فالسجع قد أجيز معه تغيير وضع اللفظة، وأجيز معه أن يورد لفظتين بمعنى واحد فى آخر إحدى اللفظتين.

[المثل السائر، ٣٢٣/١].

وعلى هذا تكون لفظة (نبيًا) زائدة أو شبيهة بالزائدة لأنها لم تُضف جديدًا، ولو قيل فى غير القرآن (لكان نبيًا رسولاً) لم تكن هناك زيادة إذ هو تدرج من النبوة إلى

الرسالة، ولكن رؤوس الآي أرادت شيئًا آخر: فالسورة من أولها إلى آخرها تسير على هذا النسق: زكريا – خفيا– شقيا– وليا– رضيا...إلخ.

وفى الآية الثانية عطف (رُمَّان) على نخل وفاكهة وهو لا يخرج عن هذين الصنفين ولكن جيء بها – ضمن أسباب أخرى– لتناسق رؤوس الآي واتساقها مع ما قبلها وما بعدها.

وفى الآية الثالثة عطف (حريرًا) على (جنة)، والحرير نوع من مئات الأنواع التى يُمتّع بها أهل الجنة، فيبدو للوهلة الأولى أن فى عطفها عدم تناسب، فكان هذا التعبير أشبه بمن يقول (أعطنى قصرًا وقرشًا) ولما أراد الزمخشرى أن يعلل لفائدة هذا العطف عرض لسبب نزول هذه الآية الذى لا يخلو من المبالغة، ومؤداها أن عليًا وفاطمة وولديهما حرموا أنفسهم فطور الصيام على مدى ثلاثة أيام إذ كان فى كل ليلة يطرق بابهم أحد المساكين فى الوقت الذى يهمون فيه بتناول الطعام فيؤثرونه على أنفسهم، فجعل هذه القصة سببًا فى نزول هذه الآية على هذا النحو. [الكشاف: ١٦٨/٤] ولو كانت بينهما علاقة لكان الأولى أن يُقال (جنة وطعاما) محل الشاهد خصوصًا وأن القصة بدأت من قوله تعالى: ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾[الإنسان:٨]، ولما لم يكن الأمر كذلك فُهم أن الآية ختمت بكلمة (حريرًا) لتتناسب مع ما قبلها وما بعدها، وهذا نوع من التصرف فى صناعة الفاصلة، وهو لا شك بلاغة وليست عيبًا أو إنقاصًا من دقة النظم، فبهذه الكلمات الثلاث (نبيًا – رُمَّان – حريرًا) تحققت المقاطع التى يمكن للقارئ أن يقف عندها يستريح ويتأمل ويحدث له الانسجام.

زيادة الجملـــة:

ويسمى كذلك بالإيغال ودائمًا ما يمثلون على هذا النوع من الزيادة بقوله تعالى: ﴿ **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ [الإسراء:٨٨] فالمعنى انتهى عند قوله تعالى: ﴿**لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ**﴾ خصوصًا وأن الآية تصدرها قسم (لئن) أي والله إنى اجتمعت...إلخ، ولأنهم بالضرورة أعنى الإنس والجن سيكون بعضهم لبعض ظهيرا للوصول إلى غايتهم.

ثم تطالعنا بعد ذلك هذه الآيات التى تؤكد ما أذهب إليه وهو أن هناك كلمات وتراكيب كان من أبرز وظائفها تحقيق الوقف على رؤوس الآي:

١ – ﴿ **لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ**﴾ [طه: ٧٧].

٢ – ﴿ **وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ**﴾ [طه: ٧٩].

٣ – ﴿ **وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ**﴾ [الصافات:١١٦].

٤ – ﴿ **قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ**﴾ [يوسف: 61].

٥ – ﴿ **وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ**﴾ [الأنبياء: ٧٩].

٦ – ﴿**إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ [النمل: ٣٤].

يمكن أن نلاحظ فى هذه الآيات عدة مسائل:

١ – إن الزيادة أو شبه الزيادة التى أُرجحها إنما وقعت فى جمل وتراكيب وليست كلمات كما كان الحال فى الفقرة السابقة.

٢ – إنه وقع فى الشعر مثل هذه الزيادة وتسمى التصدير وبرد العجز على الصدر.

٣ – إن رؤوس الآي فى هذه المواضع لم تفد سوى التأكيد لأن أولها يغنى عن آخرها.

ولنعد إلى كتابتها على هذا النحو:

١ – لا تخاف دركًا ← ولا تخشى

٢ – **وأضل فرعون قومه ← وما هدى**

٣ – **ونصرناهم ← فكانوا هم الغالبين**

٤ – **قالوا سنراود عنه أباه ← وإنا لفاعلون**

٥ – **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ← وكنا فاعلين**

٦ – **إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ← وكذلك يفعلون.**

فيمكن أن تفيد هذه الجمل إضافة إلى إفادة التأكيد تحقيق الوقف على رؤوس الآي.

ومثل هذا يقال فى الآية الكريمة من سورة يس:

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ [يس:٢٨].

فجملة (وما كنا منزلين) لم تضف جديدًا وإنما جاءت لإقامة الفاصلة.

وقل مثل هذا فى مجموعة الآيات الخاصة بامتناع إبليس عن السجود لآدم:

﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ**﴾ [الأعراف:١١].

﴿ **فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ**﴾

﴿ **إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ**﴾ [الحجر:٣٠، ٣١].

﴿**وإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى**﴾ [طه:١١٦].

فالجمل فى هذه الآيات منتهية عند قوله إلا إبليس وقد تم المعنى ولأن قوله (لم يكن من الساجدين) و(أبى) أفاده قوله (إلا إبليس).

البنيـــــــة

الحركة التصريفية (حركية الكلمة):

أريد بها الحركة الداخلية وخاصة حركة وسط الثلاثى من الأسماء المجردة، فهذا الحرف يحتمل فى كثير من مفردات العربية التحريك والتسكين، وربما كان ذلك لموسيقية اللغة العربية وارتباط الشعر العربى بالساكن والمتحرك، وكثيرًا ما يحتاج الشاعر إلى تسكين هذا الحرف لإقامة الوزن.

ويرى السيوطى أن الأصل هو التسكين، يقول: "الأصل فى تقدير الحرف أن يقدر ساكنًا لأن الحركة أمر زائد فلا يقدم عليه إلا بدليل". [الأشباه والنظائر،١/١٧٢].

ونريد من خلال تناول هذه المسألة الإقرار بأن الحرص على المناسبة بين الكلمات الموقوف عليها امتد إلى بنية الكلمة من حيث التحريك والتسكين، وأن هذه المناسبة كان لها دور فى اتفاق القراء واختلافهم فيما روت لنا كتب القراءات.

فبينما اتفق القراء العشرة على قراءة (رشدا) من قوله تعالى: ﴿ **فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا**﴾ [الجن:١٤]، بتحريك (الشين) بالفتح لتحقيق المناسبة بين كلمات هذه السورة المتحركة الوسط نحو (عجبا)، (أحدا)، (ولدا)، (شططا)، (كذبا) نراهم اختلفوا فى حركة الشين من قوله: ﴿**الرُّشْدِ**﴾ [الأعراف:١٤٦] فقرأ حمزة والكسائى وخلف بفتح الراء، والشين والباقون بضم الراء وإسكان الشين. [البدور الزاهرة: ص ١٢٤].

والملاحظ أن هذه الكلمة فى هذا الموضع لم تقع رأس آية فسوغ ذلك الاختلاف. ينقل أبو هلال العسكرى فى الفرق بين (الرُشْد)، و (الرَشَد): "عن أبى عمرو بن العلاء الرشد الصلاح قال الله تعالى: ﴿**فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم**﴾، والرشد الاستقامة فى الدين، ومنه قوله تعالى: ﴿**على أن تعلمن مما علمت رشدا**﴾ وقيل هما لغتان مثل العدم والعدم". [الفروق اللغوية ، ص ١٧٥].

ومثل هذا يقال فى (لهب) من قوله تعالى: ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾ [المسد:١] (قرأ ابن كثير بإسكان الهاء وقرأ الباقون بفتحها، واتفقوا على فتح الهاء من ﴿ **ذَاتَ لَهَبٍ** ﴾[المسد:٣] ، ومن ﴿**وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ**﴾ [المرسلات:٣١].

[ابن الجزرى: النشر ٤٠٤/٢].

والموضعان الأخيران وقعا رأسي آية فتحرك وسطهما لتناسب الآي ولموافقة ما قبلهما وما بعدهما من الكلمات المتحركة الوسط، ويرى الرازى أن فى هذا دليلاً على أن الفتح أوجه من الإسكان ولا أدرى كيف استخلص هذا الدليل ولم يتفقوا على قراءة واحدة، ولكن نقول إن فى هذا دليلاً على حرصهم على تحقيق الانسجام بين رؤوس الآي، سواء أكان هذا الانسجام بين الحروف أم الحركات. وقد تناول السيوطى طرفًا من هذا الموضوع ويسمى فى البلاغة بالمحاذاة فقال: "يقال تعسًا له ونكسًا وإنما هو نُكس بالضم، وإنما فُتح هنا للازدواج، وقال الفراء: إذا قالوا: النجس مع الرجس أتبعوه إياه، فقالوا: رجس نجس بالكسر، وإذا أفردوه قالوا نجس بالفتح: قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾ [التوبة: ٢٨].[السيوطى: المزهر ٣٤١/١].

الصيـــغ :

كان للفاصلة كذلك أثر واضح فى اختيار الصيغ التى تقع رأس آية، إذ يلزم لتحقيق التناسق أحيانًا أن يأتى اسم الفاعل مكان اسم المفعول، أو العكس، أو يأتى اسم المفعول مكان المصدر، أو يؤتى بصيغة مبالغة والكلام لا يحتاج إليه إلى غير ذلك، يقول السيوطى: "ومن سنن العرب التعويض وهو إقامة الكلمة مقام الكلمة كإقامة المصدر مقام الأمر، نحو: ﴿**فضرب الرقاب**﴾، واسم الفاعل مقام المصدر، نحو: ﴿**ليس لوقعتها كاذبة**﴾، أي تكذيب، والمفعول مقام المصدر، نحو: ﴿**بأيكم المفتون**﴾ أي الفتنة. [المزهر: ٣٣٧/١].

وقد نُقل إلينا شئ من ذلك عن الرسول (ص)، قال فى رقيته للحسن والحسين: "أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة"، فقال صلى الله عليه وسلم – لامة – ولم يقل ملمة، وقوله مرحبًا بالوفد: "غير خزايا ولا ندامى لحسن المناسبة". ومن ذلك قوله تعالى على لسان أم مريم: ﴿**وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ**

وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] فصيغة فعيل تدل على المبالغة أو صفة مشبهة باسم الفاعل وليس هذا هو المراد من وصف الشيطان بأنه رجيم، لذا قالوا فعيل بمعنى مفعول أي (من الشيطان المرجوم) وهذه الصيغة أوقع فى تصوير المعنى لولا أن صيغة (فعيل) مقدمة دائماً على صيغة (مفعول) بصرف النظر عن المقررات الصرفية وبصرف النظر عن الظلال الدلالية.

وفى سورة (يوسف:٨٤) يطالعنا قوله تعالى: ﴿**وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ**﴾ حيث ختمت الآية بكلمة ﴿**كَظِيمٌ**﴾ وهى صيغة مبالغة أو صفة مشبهة وقالوا هى بمعنى اسم المفعول أي (مكظوم)، والكلمة على هذا الوزن مُلبسة فلا ندرى إن كان كاظمًا للغيظ أم كان ممتلئ به ، وفى سورة القلم [٤٨] جاء الوزن على الأصل ﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ**﴾، والأمر الجلي أن فواصل السورة الأولى استدعت وزن (فعيل) فكانت (كظيم) وفواصل السورة الثانية استدعت وزن (مفعول) فكانت (مكظوم)، وهو ما يمكن أن يسمى بقيود الاختيار.

قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾ [مريم:٦٤] فختمت الآية على هذا النحو رعاية للفاصلة واللفظ وإن كان المعنى يستدعى (ناسيًا) لأن نفى المبالغة (نسيا) لا ينفى أصل الفعل، فهو سبحانه وفق هذا التركيب لا ينسى كثيرًا ولكنه قد يكون ناسيًا، ولو قيل فى غير القرآن (وما كان ربك ناسيًا) لكان أدق فى تصوير المعنى.

وقد تأتى (مفعول) بمعنى (فاعل) رعاية لفواصل الآيات رغم البعد فى المعنى بين الصيغتين، من ذلك:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء:٤٥].

والحجاب ساتر وليس مستورًا، وقيل هو حجاب لا تراه الأعين فهو مستور عنها، وقيل حجاب من دونه حجاب فهو مستور بغيره، وقيل المراد بالحجاب المستور الطبع والختم. [الشوكانى، فتح القدير، ٢٣١/٣].

والملاحظ أن صيغة (مفعول) أكثر موسيقية من صيغة (فاعل)، والاستعمال القرآنى أكثر عناية بها وانصرافًا إليها لوجود الحركة الطويلة (الواو) قبل الحرف الأخير. ومن ذلك قوله تعالى : ﴿**جَنَّاتِ عَدْنٍ التِى وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا**﴾ [مريم:٦١]، ووعده سبحانه (آت) ولا يؤتى به. وقد يقع العكس بأن تأتى (فاعل) مكان (مفعول)، من ذلك ما جاء بسورة الحاقة [الآيات ١٩ – ٢٤] :

﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ**﴾

﴿**إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ**﴾

﴿ **فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ**﴾

﴿ **فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ**﴾

﴿ **قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ**﴾

﴿ **كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**﴾

الإفراد والتثنية والجمع:

الأصل فى اللفظ المفرد والمثنى والمجموع أن يدل على ما وضع له، ولكن قد يلجأ النص القرآنى إلى مخالفة هذه القاعدة خاصة على رؤوس الآي، وقد سمى ابن

قتيبة هذا النوع (باب مخالفة اللفظ معناه) بينما أطلق عليه ابن جنى (فصل فى الحمل على المعانى).[تأويل مشكل القرآن، ص ٢١٣، الخصائص، ٤١١/٢].

وبعد تتبعى لهذا القسم خاصة على رؤوس الآي رأيت أنه يقع فى أربعة أنواع: (إفراد ما حقه الجمع والعكس) ، (إفراد ما حقه التثنية والعكس). أما النوع الأول فهو الأكثر، من ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا**﴾ [الكهف:٥١] والقياس أعضادًا، لتتفق مع ما قبلها وما بعدها: (أحدا- بدلا- موبقا- مصرفا)، بل إن السورة من أولها تمضى على هذا النحو:

﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا**﴾

﴿**قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا**﴾

قال الألوسى فى روح المعانى: "وفسر (عضدا) بالجمع، والإفراد لرؤوس الآي".

ومنه كذلك: ﴿**وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾ [الفرقان:٧٤] الأولى أئمة، ويجوز أن يكون المعنى اجعل كل واحد منا إماما، كما قال: ﴿**يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا**﴾ [غافر:٦٧]، فالاتساق الذهنى يستدعى (أئمة) واجعلنا= أئمة، والفاصلة تطلب (إماما) لتتفق مع (كراما- مقاما- سلاما)، فكانت الغلبة للفاصلة بصرف النظر عن التأويل والتخريج لاستقامة التركيب على هذا النحو المخالف قليلاً للمقررات اللغوية بل والمعنى.

ومن ذلك أيضًا: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ**﴾ [القمر:٥٤] ودائمًا أن يعطف على الجنات بالأنهار ولكن يبدو أن رؤوس الآي استدعت هذا الإفراد، قال الطبرى: "ووحد النهر فى اللفظ، ومعناه الجمع، كما وحد الدبر، ومعناه الأدبار فى قوله:

﴿**يولون الدبر**﴾ "، وبمثله قال الفراء فى معانيه، والغالب على هذا التركيب أن يؤتى بـ (عيون) بدلاً من (الأنهار)، نحو: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**﴾ [الحجر:٤٥]، ونحو:﴿ **كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**﴾ [الدخان:٢٥]، ولكن رؤوس الآي وقيود الاختيار حتمت هذه اللفظة (نهر) لتتسق مع فواصل السورة من أولها إلى آخرها: (القمر – مستمر – مستقر...إلخ).

ومن ذلك:

١ – ﴿ **وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء: ٦٩] أي رفقاء.

٢ – ﴿ **وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا**﴾ [الفرقان: ١٨] أي أبوارا.

٣ – ﴿ **الْقُرُونِ الْأُولَىٰ**﴾ [طه: ٥١] أي الأُوّل.

٤ – ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾ [الأعراف:١٨٠] أي الحسان.

وتبيح الضرورة للشاعر أن يأتى باللفظة على صورة المفرد وهو يريد الجمع، ومنه قول أمية الهذلى:

أولئك آبائى وهم لى ناصر ٠٠٠ وهم لك إن صانعت ذا معقل

– أراد: وهم لى ناصرون.

ومنه قول الأخطل:

أصبح جمع الحي، قيس شاسعًا ٠٠٠ كأنما كانوا غرابًـا واقعـا

[الضرورات الشعرية، خليل بنيان الحسون، ص ٧٩].

ومن ذلك – وهو ما يمكن أن يعد من قيود الاختيار – قوله تعالى: ﴿**وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾ [القمر:٤٥] ، فقد وقع هذا التركيب على رؤوس الآي فى خمسة مواضع بصيغة الجمع:

﴿**وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ**﴾ [آل عمران: ١١١]،

﴿**إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ**﴾ [الأنفال:١٥]،

﴿**وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ**﴾ [الأحزاب:١٥]،

﴿**وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ**﴾ [الفتح: ٢٢]،

﴿**وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ**﴾ [الحشر:١٢].

وكان لقيود الاختيار دور فى إفراد هذا الجمع (الدبر) فى هذا الموضع اتساقًا مع فواصل هذه السورة التى تمضى على نسق واحد من بدايتها إلى نهايتها:

﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ**﴾

﴿**وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ**﴾

﴿**وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ**﴾

﴿**وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ**﴾ [القمر: ١-٤].

أما ما جُمع وحقه الإفراد رعاية للفاصلة فمنه: ﴿**لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ**﴾ [إبراهيم:٣١]، بدليل قوله: ﴿**لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ**﴾ [البقرة:٢٥٤] والخلال والخلة فى معنى الصداقة.

ومنه قوله على لسان بلقيس: ﴿**فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**﴾ [النمل:٣٥] بدليل قوله بعدها: ﴿ **ارْجِعْ إِلَيْهِمْ** ﴾ [النمل:٣٧]، وقد مهد لهذا الجمع بقوله: ﴿**بِمَا لَدَيهِمْ**﴾ والقياس لديه.

انظر إلى هذا الانتقال الغريب من الإفراد – أو من التثنية – إلى الجمع فى قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ [الزمر: ٣٣]، فظاهر الآية أنها تتحدث عن شخص واحد عاد عليه هذا الضمير (الذى جاء بالصدق وصدق به) وهو الرسول عليه السلام أو قد يكون الذى جاء بالصدق جبريل والذى صدق به محمد (ص)، أو أن يكون الذى جاء بالصدق محمد (ص) والذى صدق به أبو بكر أو على، وفى كل الأحوال وأبعد الاحتمالات الإخبار عن اثنين، ولكنه أخبر عنه بالجمع (أولئك هم المتقون) مراعاة للفاصلة، وقد قُرئ شذوذًا (والذى جاءوا بالصدق وصدقوا به) ، أراد (الذين) وحذفت النون لتتحقق المطابقة بين المبتدأ والخبر.

ومما جُمع وحقه التثنية قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ [فصلت:١١]، قوله (طائعين) جمع مذكر سالم وكان القياس (طائعتين) لأنهما مثنى ولأنهما يعاملان معاملة غير العاقل، ولكن جاء التركيب خارجًا على المقررات اللغوية لإقامة الفاصلة.

أما ما ثنى ويحتمل أن يكون المراد إفراده فقوله تعالى: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن:٤٦] وهذه الآية من المشكلات: فالسورة من أولها إلى آخرها تنتهى بالألف والنون فلما جاء ذكر الجنة ثنيت، ودائمًا ما تفرد أو تجمع ولم تثن إلا فى هذه السورة مما جعل الفراء يرى أن هذه التثنية لموافقة رؤوس الآي وإنما هى جنة واحدة،

وتابعه فى ذلك أبو زكريا الأنصارى [فتح الرحمن: ص ٥٧٠]، يقول أحد الباحثين: ""من المسائل التى تعرضت لبحث علماء العربية، ولها اتصال بقضية الضرورة الشعرية، قوله تعالى: ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ فقد ذهب الفراء من أئمة الكوفيين فى الآية مذهبًا ساوى فيه بين القرآن والشعر من هذه الجهة، فقال: "ذكر المفسرون أنهما بستانان من بساتين الجنة، وقد يكون فى العربية جنة تثنيها العرب فى أشعارها، أنشدنى بعضهم:

ومهمهين قذفين مرتين ٠٠٠ قطعته بالأم لا بالسمتين

يريد مهمهًا واحدًا.

وأنشدنى آخر:

يسعى بكيداء ولهذمين ٠٠٠ قد جعل الأطاة جنتين

وذلك أن الشعر له قواف يقيمها الزيادة والنقصان، فيحتمل مالا يحتمله الكلام"، ويواصل حديثه: وقد أثارت الآية بين العلماء اضطرابًا شديدًا لخروجها على نمط التعبير الذى دأب عليه القرآن من استعمال الجنة بغير لفظ التثنية ولذلك كان القول بالجنتين فى سورة الرحمن مفاجأة لم يتهيأ لها الفكر الدينى، فالقول بالجنتين يتعارض مع القول بالجنة الواحدة ولا يتهيأ للفكر الدينى أن يأتلف القولان إلا على نحو من التأويل يستوعب فيه أحدهما الآخر ولذلك تباينت أقوال المفسرين تباينًا شديدًا"". [الضرورة الشعرية، دراسة أسلوبية، السيد إبراهيم محمد، ص ١٠١-١٠٣].

التراكيـــــــب

أولًا – التقديم والتأخير:

إن وقوع هذه الظاهرة لأجل الفاصلة بالنص القرآنى وشيوعها أكثر من أن يحصى، نحو: ﴿**واللهُ علىَ كُل شئٍ قَدِير**﴾ وأصل التركيب (والله قدير على كل شئ)، ونحو: ﴿**واللهُ بما تَعْمَلُونَ خَبِير**﴾ = (والله خبير بما تعملون) ، ﴿**ومَا هِى مِن الظَالِمينَ بِبَعِيد**﴾ = (وما هى ببعيد من الظالمين) ، ﴿**ولم يَكُن له كفوًا أحَد**﴾ = (ولم يكن أحد كفوا له)، ﴿**وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**﴾ = (والمصير إلى الله).

وعليه سنكتفى بإيراد نماذج من هذا التقديم متسائلين هل كان له أثر على المعنى والقواعد؟

ويتصل هذا الموضوع بقاعدة (إعادة الترتيب) Permutetion وهى من قضايا التقدير النحوى التى حظيت باهتمام اللغويين.

والألفاظ قوالب المعانى، فيجب أن يكون ترتيبها وفق المقررات اللغوية، ومن البين أن رتبة المسند إليه مثلًا التقديم لأنه المحكوم عليه، ورتبة المسند التأخير، إذ هو المحكوم به، وما عداها فتوابع ومتعلقات تأتى تالية لهما فى الرتبة، يقول السيوطى: "ومن سنن العرب تقديم الكلام وهو فى المعنى مؤخر، وتأخره وهو فى المعنى مقدم، كقوله : ما بال عينك منها الماء ينسكب، أو ما بال عينك ينسكب منها الماء". [المزهر: ٣٣٨/١].

وتطالعنا سورة البقرة بهذا النوع من التقديم الذى كان لأجل الفاصلة بشكل مركزى، قال تعالى فى صفة المتقين:

﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾

﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾ [آية: ٣، ٤].

ولعل أثر الفاصلة فى إعادة ترتيب الآية الأولى أوضح، أعنى جملتها الأخيرة ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ فليس فى تقديم (مما رزقناهم) زيادة اختصاص أو اهتمام، وكان أولى بهذا الاختصاص والاهتمام الجملتين السابقتين لها ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾، ﴿**وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**﴾، ألا ترى أن كثيرًا من الناس – وخاصة فى زماننا– ينفقون تحت مسميات مختلفة وأهداف متباينة، وهم مع ذلك لا يؤمنون بالغيب ولا يقيمون الصلاة، فكان الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة أعظم وأشق على النفوس لما يتبعه من تكاليف فكان أولى بالتقديم، ولكن الآية لا تخص عملاً بعينه وإنما تشير إلى فئة من الناس هذه صفتهم، ولا بد لها من مقطع تقف عنده فجاء النسق على هذا النحو.

ومن المواضع التى وقع فيها التقديم والتأخير لأجل الفاصلة قوله تعالى: ﴿**فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ**﴾ [الكهف:٨٨] وترتيب الكلام (وله الحسنى جزاءً) فقدم وأخّر لأجل الفاصلة.

قال تعالى: ﴿**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**﴾ [الكهف: ٧٩] فالمفترض أن يقدم العلة فى إرادته خرق هذه السفينة أي (**وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**) لذا أردت خرقها حتى لا يقدم الرغبة فى الخراب والدمار على تبيين السبب من هذا الفعل

الغريب، وليس هذا التقديم متعلقًا بالعناية بهذه الجملة **(فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا)** كما ذكر أبو حيان ولكن بسبب الفاصلة والضرورة التى استدعت ذلك.

ومن أشهر المواضع التى وقع فيها مثل هذا التقديم والتأخير لأجل الفاصلة قوله تعالى على لسان سحرة فرعون: ﴿**قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ**﴾ [طه: ٧٠]، وقد اقترن موسى وهارون عليهما السلام فى القرآن الكريم فى عشرة مواضع: تسعة منها يتقدم فيها ذكر "موسى" على "هارون" أربعة منها فى غير الفاصلة، وخمسة فى الفاصلة، وتقدم ذكر "هارون" على "موسى" فى هذا الموضع فقط، وكان هارون وزيرًا لـ "موسى" وأدنى منه رتبة، فكان الترتيب الذهنى يقتدى تأخيره ولكن كان للفاصلة أثر فى تقديمه لكى تتسق الفاصلة مع فواصل السورة، ومع ذلك الوضوح لأثر الفاصلة فى ترتيب هذه الجملة تقف جماعة رفض يتقدمهم الباقلانى ترى أن هناك أسبابًا بلاغية أخرى استدعت هذا التقديم سوى رعاية الفاصلة، يقول الباقلانى: "وأما ما ذكروه من تقديم موسى على هارون عليهما السلام فى موضع وتأخيره عنه فى موضع لمكان السجع وتساوى مقاطع الكلام، فليس بصحيح، لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه، وهى أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنًى واحدًا، من الأمر الصعب، الذى تظهر به الفصاحة، وتتبين به البلاغة". [إعجاز القرآن: ص ٩٣].

وعبارة الباقلانى تلك تلقفها من جاءوا بعده ورددوها دون زيادة ولا نقصان وكأنهم ظفروا ببغيتهم، فليس لديهم ما يقولون فى تعليل هذا التقديم سوى كلام الباقلانى الذى لا يخلو من البساطة بل السذاجة، فكيف يكون فى هذا التقديم المحدود لاسمين إعادة لقصة طويلة والألفاظ هى الألفاظ دون زيادة ولا نقصان، والموقف الذى سيقت فيه هنا وفى المواضع الأخرى هو نفسه دون تغير، وكيف تظهر الفصاحة وتتباين البلاغة كما يزعم بسبب هذا التقديم؟ إضافة إلى ذلك فإن العطف بالواو فى

الآية الكريمة يجعل المتقدم مساويًا للمتأخر لغة ومعنًى– على حد زعمهم– وإذن فليس هناك مبرر لهذا التقديم والتأخير سوى مراعاة الفاصلة وتحقيق التوافق فى مقاطع الآيات للوصول إلى الإيقاع الفنى والجرس الموسيقى كما حدث ذلك فى آيات كثيرة من القرآن والذى أدى إلى هذا التكلف والتعسف اعتقاد بعض المشتغلين بهذا الفن أن الاعتراف بدور الفاصلة وأثرها فى بناء الجملة العربية يعد إنقاصًا من بلاغة القرآن ومساسًا بفصاحته، وكأن فن الفاصلة ليس من البلاغة فى شئ، والذى يجب أن يكون خلاف ذلك : فإن التفنن فى تحقيق الفواصل صناعة تحتاج إلى حسن تصرف وحسن تخلص، وكل هذا من صميم البلاغة، ورعاية الفاصلة تتطلب إعادة النظم واختيار اللفظة المناسبة والتركيب الخاص الذى يحقق هذا الهدف المطلوب لذاته، فإن كان التقديم لمجرد تحقيق الانسجام والتوافق بين رؤوس الآي فهو من البلاغة والفصاحة، ولا يلزم بعد ذلك البحث والتنقيب عن أسباب أخرى لا تخلو من الشطط.

ثانيًا – إعادة بناء الجملة وتعديل التركيب:

قد يلجأ النص القرآنى فى سبيل صناعة الفاصلة إلى إحداث تغيير فى تركيب الجملة والعدول بها عن المألوف فى الاستعمال واتساق الكلام، فمن ذلك عدم المطابقة بين الأفعال:

قال تعالى: ﴿ **فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**﴾ [البقرة: ٨٧]، كان حق الكلام أن يقال (وفريقا قتلتم) لأنه فعل قد مضى، ولأن الجملة الأولى جاءت على هذا الأصل (ففريقًا كذبتم) ولكن هذا الفعل الماضى (قتلتم) لا يصلح أن تختم به آية قرآنية فى صورته تلك – وربما وقع فى حشو الآية نحو: ﴿ **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا**﴾

[البقرة: ٧٢] لعدم حاجته إلى الجرس الموسيقى الذى يسعى القرآن إلى تحقيقه على رؤوس الآي، لذا يؤتى بصيغة المضارعة المرفوعة بثبوت النون (الأمثلة الخمسة) التى تنتهى بالواو والنون فى غالب أحوالها.

ومن عدم المطابقة إجراء غير العاقل مجرى العاقل إذ يفرق بينهما فى العربية، من ذلك قوله تعالى على لسان يوسف: ﴿ **إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ** ﴾ [يوسف: ٤] والقياس (ساجدة) أو (ساجدات)، وقوله تعالى: ﴿ **فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**﴾ [الشعراء:٤] بدلاً من (خاضعة) أو (خاضعات)، وقوله: ﴿**وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ [يس: ٤٠]، قال أبو عبيدة: "والعرب قد تفعل ذلك، قال النابغة الجعدى:

تَمَزَّزْتُها والدِّيكُ يَدْعُو صَبَاحَهُ إذا ما بَنُو نَعْشٍ دَنَوْا فَتَصَوَّبُوا"

ومن عدم المطابقة ما يكون بين المذكر والمؤنث: كأن يذكر ما حقه التأنيث أو العكس، والنوع الأول أكثر لكثرة توجيه الخطاب إلى المذكرين، يقول سيبويه: "المذكر أخف عليهم من المؤنث لأن المذكر أول، وهو أشد تمكنًا وإنما يخرج التأنيث من التذكير". [الكتاب ٢٢/١، ٢٤٠/٣] ، من ذلك قوله تعالى:

﴿**وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾ [هود: ٨٣]،

﴿**قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ**﴾ [يس:٧٨]،

﴿**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ**﴾ [الشورى:١٧]،

﴿**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ**﴾ [ق: ٣١].

ولا يخفى أثر الفاصلة فى ورود هذا التركيب على هذا النحو، يقول الزجاج: "إنما جاز (قريب) لأن تأنيث الساعة تأنيث غير حقيقى، وهو بمعنى لعل البعث قريب ويجوز أن يكون على معنى لعل مجئ الساعة قريب". [معانى القرآن، ٣٩٦/٤].

أما ما أُنث وحقه التذكير فمنه قوله تعالى: ﴿**بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**﴾ [القيامة:١٤]، فرؤوس هذه السورة تنتهى فى معظمها بما يسمى بالتاء المربوطة، وأصل دخولها فى فصل وصف المؤنث من وصف المذكر نحو ضاربة وضارب، وفى فصل الآحاد المخلوقة من أجناسها نحو: دُرَّة ودُرر، وتمرة وتمر، وبقرة وبقر، ثم قيل فى إلحاق هذه التاء الكثير، من ذلك ما أورده الفيروز آبادى قال: "أي عليه من جوارحه بصيرة، فتبصره وتشهد عليه يوم القيامة". وقال الأخفش: "جعله فى نفسه بصيرة، كما يقال: فلان جود وكرم فههنا أيضًا كذلك، لأن الإنسان ببديهة عقله يعلم أن ما يقربه إلى الله هو السعادة، وما يبعده عن طاعته الشقاوة وتأنيث البصير لأن المراد بالإنسان هنا جوارحه". [بصائر ذوى التمييز، ٢٢٢/٢].

من ذلك أيضًا قوله تعالى فى امرأة لوط: ﴿**قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ**﴾ [النمل: ٥٧]، وقوله تعالى فى مريم: ﴿**وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ** ﴾ [التحريم:١٢] وعللوا ذلك بأنه من التغليب وحقيقته إعطاء الشئ حكم غيره وقيل ترجيح المغلوبين، على الآخر، وإطلاق لفظه عليهما إجراءً للمختلفين مجرى المتفقين، قال ابن هشام: "القاعدة الرابعة أنهم يغلبون على الشئ ما لغيره لتناسب بينهما أو اختلاط، فلهذا قالوا الأبوين فى الأب والأم، وفى الأب والخالة، والمشرقين والمغربين، والخافقين فى المشرق والمغرب،

وإنما الخافق المغرب، والقمرين فى الشمس والقمر، والعمرين فى أبى بكر وعمر، والمذكرين على المذكر والمؤنث". [السيوطى، الأشباه والنظائر، ١٣٢/١].

وقد وقع مثل هذا النوع من الضرورة فى الشعر العربى وسنكتفى بإيراد بعض الأبيات المشهورة فى تأنيث ما حقه التذكير كقول قيس ليلى:

وما حب الديار شغفن قلبى ٠٠٠ ولكن حب من سكن الديارا

وكان القياس أن يقول شغف قلبى، إلا أنه حين اضطر إلى ذلك والمسوغ إضافته إلى الديار، وقد اكتسب المضاف الجمع أيضًا من المضاف إليه فضلًا عن التأنيث لقوله "شغفن". ومثله قول جرير:

رأت مر السنين أخذن منى ٠٠٠ كما أخذ السرار من الهلال

[خليل بنيان الحسون، فى الضرورات الشعرية، ص ٧٦].

مفردات ألفاظ الفاصلة

وإذا انتقلنا إلى المفردات بعيدًا عن الجوانب الصوتية والصرفية وبعيدًا عن قواعد التركيب سنلاحظ أن كلمات أواخر الآي تأثرت بالفاصلة وتلونت بلونها من حيث قيود الاختيار واختيار اللفظة شيوعًا وغرابة، ومن حيث تنويع الصفات، ودلالة الكلمات والتراكيب، وذلك على النحو الآتى:

قيود الاختيار:

اضطربت آراء علمائنا اللغويين قديمًا وحديثًا فى شأن قضية "الترادف اللغوى" فى العربية واتسعت مسائل الخلاف بينهم بين مثبت ونافٍ ومتردد، وهنا لا نقف طويلًا عند خلافهم إلا بالقدر الذى يكمل جوانب البحث ويجلِّيه.

وفيما يتصل بالترادف ورؤوس الآي أقرر بادئ ذى بدء أن جميع المواضع التى سأشير إليها إنما هى خير دليل على وقوع الترادف فى القرآن لأننا نتعامل مع نص له بداية ونهاية أي إنه يمثل (كتلة لغوية متماسكة) – إن جاز لى هذا التعبير– فإذا وجدنا الفكرة الواحدة يعبر عنها بألفاظ مختلفة بحسب ما تقتضيه الفاصلة علمنا أن القرآن استعمل هذه الكلمات ليدل بها على معنى واحد.

خَتم القرآن كثيرًا من آياته بالإشادة بأصحاب العقول الذين يتفكرون فى خلق الله وفى عجائب نعمه، والذين يقدرون نعم الله ويشكرونه عليها، والذين يتدبرون فى شأن الآخرة ويحسبون حسابها، وتنوعت كلمات القرآن فى إشارتها لأصحاب العقول بحسب السياق القرآنى وبحسب طبيعة الفاصلة:

قال تعالى مخاطبًا المؤمنين: ﴿**وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال: ﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ [أل عمران:٧]، وقال فى مقام تعديد النعم: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ**﴾ [طه: ٥٤]، وقال فى مقام مشابه: ﴿**هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ**﴾ [الفجر: ٥].

هكذا وردت هذه الكلمات ليعبر بها عن أصحاب العقول

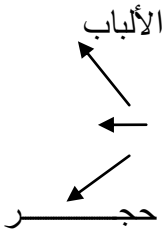

أما الألباب وهى جمع لُب فقد وردت أينما تتناسب مع الفاصلة فى ستة عشر موضعًا، أما النهى والحجر فلم يرد لهما ذكر إلا فى هذين الموضعين، يقول أبو هلال فى الفرق بين العقل والنهى: "إن النهى: هو النهاية فى المعارف التى يحتاج إليها فى مفارقة الأطفال ومن يجرى مجراهم، وهى جمع واحدها (النهية)، ويجوز أن يقال أنها تفيد أن الموصوف بها يصلح أن ينتهى إلى رأيه، وسمى الغدير نهيا لأن السيل ينتهى إليه، (والتنهية) المكان الذى ينتهى إليه السيل، والجمع (التناهى) وجمع النهي (إنه، وأنهاء)، وكلها فروق لغوية تتلاشى عند الاستعمال، فالنص القرآنى لا يعبأ – فى رأيى– بمثل هذه الفروق، قال الطبرى فى معنى (الحجر): إن المراد به العقل واللب، أما النهى فقال الزجاج فى معناه كذلك أي (لذى عقل ولب)، وأورد الماوردى فى نكته ثلاثة آراء فى معنى (أولى النهى): (أولى الحكم – أولى العقول – أولى الورع)، وفسر أبو عبيدة فى مجازه (ذى الحجر) بقوله: "ذى الحجر والعقول" وكأنه لم يقف على معنى الكلمة القرآنية، أما معناها عند الماوردى فعلى خمسة وجوه: (لذى عقل– لذى حلم– لذى دين– لذى ستر– لذى علم).

فالألباب هى اللفظة الأثيرة التى يعبر بها القرآن عن أصحاب العقول لطبيعتها الموسيقية، أما (النهى والحجر) فيعدان من الغريب الذى لم يتفقوا على أصلهما اللغوى، ويمكن أن نعدهما كلمات قرآنية يُفهم مضمونها إجمالًا من خلال السياق.

فلفظة (النهى) استدعتها فواصل السورة:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾،

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾،

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾،

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٣- ٥٦].

فقيود الاختيار استدعت هاتين اللفظتين (النهى، الحجر) بدلاً من الألباب.

ولنأخذ مثالاً آخر على هذا النوع من الترادف الذى يقع موافقًا لرؤوس الآي فى استعمال القرآن للفظتى القلوب والأفئدة: فقد وردت الكلمتان فى حشو الآيات فى كثير من المواضع، وأما على رؤوسها فقيود الاختيار تفرض كلمة القلوب لتناغمها مع مثيلاتها، نحو:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ونحو:

﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] ، ورؤوس الآيات فى هاتين السورتين تسير قريبًا من هذا النغم، أما الأفئدة التى تكرر ذكرها فى حشو الآي فلم تقع فاصلة

إلا فى موضع واحد يتعذر فيه مجئ لفظة (قلوب) وذلك قوله: ﴿**الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ**﴾ [الهُمزة: ٧].

والسورة من أولها إلى آخرها تنتهى كلماتها بحرف التاء المربوطة، قال الأصفهانى: "فأد: الفؤاد كالقلب لكن يقال له فؤاد إذا اعتُبر فيه معنى التفؤد أي التوقد، يقال فأدت اللحم شويته ولحم فئيد مشوى ﴿**نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ*الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ**﴾ وتخصيص الأفئدة تنبيه على فرط تأثير له" وليس هناك ثمة سبب لتخصيص هذه الكلمة فى هذا الموضع – فى رأيى– سوى مراعاة الفاصلة، ولكن عائشة عبد الرحمن لها رأي آخر، فهى تنفى وقوع الترادف فى القرآن من خلال تناولها هذه الآية، تقول: " ولا تترادف الأفئدة والقلوب فى حس العربية المرهف ليقال فيهما برعاية الفاصلة بل يطلق القلب بدلالة عامة على الجهاز العضوى من أجهزة الجسم وعلى موضع الشعور والأهواء والعقيدة والوجدان أما الفؤاد فلا يطلق إلا بدلالة خاصة على المعنوى دون العضوى، ثم تابعت كلامها بعبارات معروفة فى التفريق بين الفؤاد والقلب، ولو طبقنا ما قالت فى موضع الهمزة لكان أولى أن يؤتى بكلمة (قلوب) لأن المشهد الذى تصفه الآية مشهد حسى وأقل ما يقال أن هاتين الكلمتين (الأفئدة، القلوب) مترادفتان. [الإعجاز البيانى، ص ٢٥٥].

الفاصلة وإيثار اللفظة الغريبة:

كان للفاصلة دور فى اختيار الألفاظ فلا بد أن يراعى فى المفردات تناسقها مع ما قبلها وما بعدها، وربما أدى ذلك إلى إيثار اللفظة الغامضة أو الغريبة، وهذا شكل من أشكال الصراع بين اللفظ والمعنى: فاللفظ من حيث الموسيقى متسق ومتناغم، ومن حيث المعنى غامض وغريب.

ولكن ما هو مقياس الغرابة ؟ وبمعنى آخر ما هو اللفظ الذى يعد غريبًا؟.

يمكن أن يكون الغريب ما قل دورانه فى القرآن فلم يستعمل إلا مرة أو مرتين، وما قل دورانه على الألسنة فلم يستعمله الخطباء والشعراء استعمال غيره من الألفاظ، ويمكن أن نضم إليه الألفاظ الأعجمية وما لم يتفقوا على معناه، جاء فى اللسان "والغريب: الغامض من الكلام" وفى المعجم الوسيط "أغرب أتى الغرب وصار غريبًا وفى كلامه أتى بالغريب البعيد عن الفهم"، يقول السيوطى: "الغرابة أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها، فنحتاج فى معرفتها إلى أن ينقب عنها فى كتب اللغة المبسوطة".[انظر ابن الأثير، المثل السائر، ٢٣٤/١، المزهر، ١٨٦/١].

وأتناول فى هذه السطور بعض الألفاظ التى وقعت على رؤوس الآي ويمكن أن تعد من الغريب.

من ذلك لفظة (ضيزَى) وهى أشهرها، من قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ**﴾ [النجم: ٢٢] قيل معناها أنها القسمة الجائرة، ولكن قيود الاختيار تمنع وضع الأخيرة على سهولتها ووضوحها وتؤثر الأولى على غرابتها وغموضها بل عدم معرفة أصلها، وكأنها كلمة قرآنية يحددها السياق بعيدًا عن المعاجم، قال الزجاج: "وأجمع النحويون أن أصل (ضيزى) ضوزى وحجتهم أنها نقلت من فعل إلى فعل أي من ضوزى إلى ضيزى لتسلم الياء، قرأ ابن كثير بهمزة ساكنة بعد الضاد، وغيره بياء تحتية ساكنة بعد الضاد.

ومن ذلك (إدًّا) من قوله ﴿**لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا**﴾ [مريم: ٨٩] وهو القول المنكر العظيم كما ورد فى التفاسير، والملاحظ أن هذا المعنى يمكن أن يفهم من السياق وإن

لم يُنص عليه، فقد استدعت (عهدا، ولدا) (إدًّا) على غرابتها. وشبيه به قوله تعالى ﴿ **لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**﴾ [الكهف: ٧١] التى سبقتها (**أَمْرًا ، ذِكْرًا**).

وأشهر من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**﴾ [عبس: ٣١]، تعد هذه اللفظة من غريب القرآن أي من الألفاظ الغامضة التى لم ترد على ألسنة العرب كثيرًا فكانوا فى جملتهم لا يعرفون معناها، واختلف المفسرون فى معنى "الأب" على سبعة أقوال، فقيل: ما ترعاه البهائم، وأما ما يأكله الأدمى فالحصيد. والثانى: التبن خاصة، والثالث: كل ما نبت على وجه الأرض، والرابع: ما سوى الفاكهة، والخامس: الثمار الرطبة، والسادس: أن رطب الثمار هو بالفاكهة ويابسها هو الأبُّ، والسابع: أنه للأنعام كالفاكهة للناس. [الزركشى، البرهان، ٣٩٩/١].

روى أن أبا بكر الصديق سُئل عن (الأبِّ) فقال أي سماء تظلنى وأي أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله مالا علم لى به، وعن عمر رضى الله عنه أنه قرأ هذه الآية فقال كل هذا قد عرفنا فما (الأبُّ) ثم نفض عصًا كانت بيده وقال هذا لعمر الله التكلف. [السيوطى، الإتقان، ٤/٢] ، ومثل هذه الروايات – إن صحت – تدعو للدهشة والاستغراب أكثر مما تدل على التورع، إلاّ إذا كانوا منهيين عن السؤال والتحرى.

الصفـــات:

نريد بالصفة النعت وإن فرق بعضهم بينهما فى الاصطلاح، وأعرض هنا فى عُجالة إلى بعض الصفات التى كان للفاصلة أثرٌ فى اختيارها، وربما إقحامها.

يجمع العلماء على أن (الرحمن) أكثر مبالغة ودلالة على الرحمة من (الرحيم) لما تشيع فى النفس من المهابة، وهو علم مقصور على المولى بينما يصف نبيه فى

القرآن بأنه (رؤوف رحيم)، قال أبو هلال: "الفرق بين (الرحمن والرحيم) أن (الرحمن) على ما قال ابن عباس أرق من (الرحيم)، يريد أنه أبلغ فى المعنى لأن الرقة والغلظة لا يوصف الله تعالى بهما، والرحمة من الله تعالى على عباده ونعمته عليهم فى باب الدين والدنيا"، وقال الشوكانى فى تفسير البسملة: "اسمان مشتقان من الرحمة على طريق المبالغة و (رحمن) أشد مبالغة من (رحيم)، ولذلك قالوا رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا، وقد تقرر أن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى". [فتح القدير: ١٨/١]، ومع ذلك ورد ذكر (الرحيم) فى القرآن فى مائة واثنين موضع و (الرحمن) فى تسعة وخمسين، فختمت كثير من الآيات بقوله: ﴿**إن الله غفور رحيم**﴾ ، ﴿**والله غفور رحيم**﴾ ، ﴿**وهو الغفور الرحيم**﴾ ولم يقل الغفور الرحمن مع قوة دلالتها على سعة رحمته، والسبب فى ذلك – فى رأيى– أن صفة الرحيم أنسب موسيقيًا فى أواخر الآي من صفة الرحمن، وهى من جهة أخرى تتناسب مع مثيلاتها من الصفات كالحكيم، العليم، السميع، القدير، القريب، المجيب،..إلخ وهذا يعنى تغليب اللفظ على المعنى لدواعٍ موسيقية.

كما أن قوله تعالى: ﴿ **الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾ [الفاتحة:٣] جاء هكذا، والمتوقع وفق هذا التفريق بين الصفتين أن يكون التركيب على هذا النحو (الرحيم الرحمن) ليكون هناك تدرج فى الوصف والمبالغة، ولكن فواصل السورة استدعت هذا الترتيب.

وكما أشرنا تأتى هذه الصفة (الرحيم) على رؤوس الآي متأخرة (وهو الغفور الرحيم) عدا موضع واحد وذلك قوله: ﴿**وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ**﴾ [سبأ:٢]، وفواصل هذه السورة تخبرك بالسبب الذى من أجله تقدمت هذه الصفة فى هذا الموضع تحديدًا:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾،

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ١، ٢].

والشئ بالشئ يذكر فهذه الصفة (الغفور) تتقدم دائمًا إلا فى مواضع يستدعيها حرف الفاصلة غالبًا كما هو الحال فى الآية السابقة، وكقوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠]،

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

ومما يتصل بترتيب الصفات وتقديم بعضها على بعض لأجل الفاصلة تقديم صفة (الشاكر) على (العليم) فيما يخص صفاته سبحانه، كقوله تعالى: **﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾** [البقرة:١٥٨]، وقوله: **﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾** [النساء:١٤٧] ، فالمفترض أن تقدم صفة (العلم) فى هذين الموضعين والذى يستتبع بعد ذلك بالضرورة شكره لمن علم أنهم أهل للشكر، ويبدو أن صفتي (عليم ، شاكر) لا تتسق مع فواصل هذين المقطعين من السورة، قال أبو حيان فى البحر: "وأخرت صفة العلم وإن كانت متقدمة على الشكر كما أن النية مقدمة على الفعل لتواخى رؤوس الآي".

قال تعالى: **﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾**[البقرة:٢٤٧]، الاتساق الذهنى يقتضى تقديم صفة (العليم) على صفة (الواسع) (والله عليم واسع) اتساقًا مع نظم الآية **(إِنَّ اللَّهَ**

اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً...)، فاصطفاؤه لعلمه سبحانه بأنه أهل لهذا الاصطفاء، وزيادة البسط فى العلم والجسم من سعة رحمته وقدرته ولأنه يوسع على عباده، ولكن اقتضت الفاصلة هذا التقديم والتأخير لهاتين الصفتين، يقول الألوسى: "وقدم الوصف الأول مع ما يناسب ظاهرًا مؤخر لأن له مناسبة معنى لأول الأخبار إذ الاصطفاء من سعة الفضل أيضًا، ولأن عليم أوفق بالفواصل وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة. [روح المعانى، ج ٢، ص ٢٤٠].

وجاء فى القرآن ألفاظ (النقير، الفتيل، القطمير) على رؤوس الآي دلالة على القلة، واللغويون يفرقون بينها فى الاستعمال، قال تعالى:

١ - ﴿**أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا**﴾ [النساء: ٥٣].

٢ - ﴿**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا**﴾ [النساء: ٧٧].

٣ - ﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ**﴾ [فاطر: ١٣].

قيل (النقير) النقرة فى ظهر النواة، و (الفتيل) الذى فى وسط النواة، و (القطمير) هى لفافة النواة، ونرى أن معانى هذه الكلمات وإن اختلفت قليلاً أريد بها التعبير عن الشئ الهين القليل، وإنما جاءت كل لفظة فى المكان الذى يناسبها فى إقامة الفاصلة، قال الرازى: "واعلم أن ذكر (النقير) ههنا تمثيل، والغرض أنهم يبخلون بأقل القليل"، كذلك وصف الشيطان تارة بأنه (رجيم)، وأخرى بأنه (مريد)، وثالثة بأنه (عدو مبين)، قال تعالى:

﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾النحل: ٩٨]،

وقال: ﴿**وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا**﴾ [النساء: ١١٧]، وقال: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا**﴾ [الإسراء:٥٣] وبين (الرجيم) و (المريد) بعض الفروق ولكن كان لنظام الفاصلة أثر فى وضع هذه اللفظة فى موضع، ووضع الأخرى فى موضع آخر، وهذا يتضح من خلال تتبع رؤوس الآي فى كل سورة، كذلك تقييد الشيطان بأنه (عدو مبين) إنما كان لأجل الفاصلة فهو عدو على كل حال سواءً أبان عن عداوته أم أخفاها فى تزيينه للإنسان.

الخاتمــة

خاطب الله العرب بلغتهم، واللغة العربية – ممثلة فى الشعر – كان من وسائلها ما يسمى بالضرورة حفاظًا على الوزن والقافية، ولما كان القرآن وسطًا بين النظم والنثر فقد أخذ من هذه اللغة هذه السمة وهذه الوسيلة، فاعتمد على ما يمكن أن نسميه (بالضرورة القرآنية)، تلك الضرورة التى تختلف عن الضرورة الشعرية فى أنها تخص كلمة الفاصلة أو الحرف الأخير منها، بخلاف الشعر الذى تخص الضرورة فيه الوزن والقافية.

والفاصلة القرآنية تُعد فنًا من فنون البلاغة، أو كما يقول ابن رشيق: "بلاغة وإحكامًا لا تصرفًا وضرورة"، وصناعة استدعت حسن التصرف فى كثير من المواضع على مستوى الأصوات والبنية والتراكيب والمفردات وارتُكب من أجلها كثير من المخالفات التى تتعلق بالمقررات اللغوية، وأثرت كذلك على المعنى، ولا بأس فإقامة هذه الفاصلة كان أمرًا حتميًا لتحقيق التناسق على رؤوس الآي، والفاصلة القرآنية مقوّم أسلوبى من مقومات النص القرآنى وركن أساسى لهذا النص.

يمكن أن نعد الضرورة الشعرية من مباحث النحو ويتم ربطها بالنص القرآنى لشيوع الظاهرة فى هذين الجنسين الأدبيين، ويتم دراستها على مستوى الأصوات والصرف والتراكيب والمفردات.